

الهيبيز ومستقبل الدين

قد لا يكون هذا العنوان ، على قدر كاف من الوقار الواجب توافره في كتاب ديني ، ولكن من تقاليد ديننا أنه « لا حياء في الدين » ، ومن آيات الله تعالى : (والله لا يستحي من الحق) .

والحق أن ظاهرة الهيبيز ، وما يشبهها ويجري مجراها ، من تمرد الشباب وخروجهم على المؤلف ، واصطناعهم الأزياء الغريبة ، والسير حفاة ، والتلذذ بالقذارة ، وإن كان في عنق أحدهم آلة تصوير بمئات الحنيات ، والتعري بدنياً على قارعة الطريق ، مع الصراخ والصياح - إن هذه الظاهرة ، هي دعوة عنيفة لرجال الدين لأن يفيقوا ، وأن يدركوا أن الأزمة التي تجتاح الإنسانية أكبر من أن تحلها ، أو تفرج كربها ، الأساليب التي تواضعوا عليها ، التي لم تعد توقظ نائماً ، ولا تردع ظالماً ، ولا تبعث همة ، ولا تحرك إرادة . . إن الدين الآن - وفي مقدمة الأديان دين المسلمين - قد عاد غريباً كما بدأ ، وجاهلية القرن العشرين ، التي تكاد الأنوار فيه تغرق المدن والقرى ، هي جاهلية أشد قتاماً وأبعد أغواراً ، وأشق تناولاً من جاهلية عشرين قرناً مضت حينما قال الناصري لتلاميذه فوق الجبل في فلسطين : « أحبوا أعداءكم » ومن جاهلية مكة وما حولها حينما قال اليتيم الفقير : « لا إله إلا الله » .

إن جاهلية اليوم هي جاهلية العلم والتخصص ، جاهلية المبادئ المعترزة بذاتها ، والجماعات المنظمة المعززة بالصحف والأقلام ، والباحثين والمحللين ، والإحصائيين ، والأساتذة والجهابذة ، جاهلية معامل البحث المدقق والمحقق ، ولكيلا تتهمني بالتجني أدع القول لعالم من علماء هذه الأيام حصل على جائزة « نوبل » سنة ١٩٢١ ، وكان طبيباً استمر في أبحاثه المتعلقة « بالقلب الميكانيكي » بعد أن اعتزل ممارسة الطب ،

وكانت غاية أبحاثه في هذا القلب : أن يصل الحياة في جسد نزع منه القلب لفترة ما . وأعني به الأستاذ الدكتور ألكسيس كاريل في كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

قال : إن التقدم المائل الذي أحرزته علوم الجهاد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط خلقياً وعقلياً . وإن الجماعات التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم . هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف . والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .

ثم قال : « إن العلم الخااص لا يجلب لنا مطلقاً ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا في مملكة الجهاد ، فإنه يصبح خطراً ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتمامه إلى نفسه وإلى السبب في عجزه الخلقى والعقلى . . وليس هناك أى ظل من الشك في أن عاوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام . »

وأحسب أن هذا القدر من الفقرات يثبت أن عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام دعوا إلى لون من العلم ، ثبتت صحته ، كما توالى خيراته وبركاته ، وهو علم صحيح غاية الصحة لا يقوم على الخرافة ولا على الوهم ولا الدجل واستغلال الجهال ، ولكن ميزته الكبرى أنه نابع من هذه الآية القرآنية الكريمة ومثالها (سريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم) .

فالعلم الإسلامى المسيحى ، يتخذ من الإنسان نفسه وعواطفه ، آماله ومخاوفه ، شكه وتردده ، يقينه وإيمانه ، طمعه وزهده ، ميدان البحث ، ومجال الدراسة .

إن الإنسان قد تحكم في الماء واخواء ، واستخرج النار ، وصنع البارود . ثم حطم الذرة ، وصعد في الفضاء . ووصل إلى أعماق المحيط . وقد وصل هذا الطراز من العلم الإنسانى إلى نتائج مذهلة .

ولنعد إلى الهييز لنتساءل ما الذى هز عقولهم ، وملأ نفوسهم بالمرارة ؟ وما الذى أطلق مظاهرات السخط والاحتجاج في الشرق والغرب ، يتزعمها الشبان الصغار ؟ وما الذى جعل الأدب ضرباً من الجنون ، والفنون لوناً من العبث ؟

واضح ، أن الذى قذف اليأس في القلوب . وأشعر الناس أنهم يسرون في طريق مسدود ، هذا العلم الناقص ، العلم الذى لا يزال ينتزع لقمة الخائض من فمه ليصنع بها صاروخاً عابراً للقارات ، وينتزع من الفقير المريض ثوبه البالى الممزق ، ليضيف أسلحة هلاك كل يوم ، نعلم بعضها ، ونجهل أكثرها .

كان الشبان في أوروبا يظنون أن العالم بعد المسيحية والديموقراطية والاشتراكية والشيوعية والجامعات والصحف والموسيقى ، والمتاحف ، سيصبح أكثر إنسانية وأقل وحشية ، فإذا هو وحش ضار لا يشبع من طلب الدماء ، وتعذيب الأبرياء ، وفرض الأحكام الظالمة باسم أظھر المؤسسات وأشرفها . لذلك صرخ الشبان : كل شيء باطل ، ولا أمل في الإنسانية ، ولا رجاء في العلم . أما الدين فقد انتهى دوره ، لأنه رأى كل ذلك ، ولم يفعل شيئاً .

لكن لا يزال هناك أمل في أن يعود رجال الدين ، في كل مكان ، إلى دينهم ، ويعيدوا الإنسانية إلى العلم الإنسانى الذى وضع القرآن أسسه . فإن القرآن لم يدع دوراً من أدوار حياة الإنسان إلا سجلها : (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً) . وكانت آيات القرآن التى تتحدث عن الإنسان بأنه (كان كفوراً) ، (وكان قتوراً) ، (وكان عجولاً) (وكان أكثر شيء جدلاً) دعوة

لرجال الدين ، الذين هم رجال العلم الأوائل ، لينظروا في الآفاق ،
ثم ليعودوا إلى نفس الإنسان ، يجوسوا خلالها ويستنبطوا منها القوة ،
ويخرجوا أحسن معادنها .

ليعلم رجال الدين في كل مكان أن الأصنام التي حطمها محمد بن
عبد الله النبي الأُمِّي ، بعصاه في الكعبة . وهو يقول : (جاء الحق وزهق
الباطل) عادت من جديد .

فإن لم يخرج رجال الدين ، وقد تركوا سياسة إثارة العافية ، والإخلاد
إلى الراحة ، ليواجهوا هذه الأصنام الجليدة ، حق لنا أن نتساءل في
جنز : هل للدين مستقبل ؟